صفحات ونفحات

بين الحب الالهى والحب النبوى

بقلم
الدكتور محمد مصطفى حلمى
أستاذ الفلسفة الاسلامية والتصوف بكلية الآداب بجامعة القاهرة

حب الهى يتخذ موضوعه من الذات العلية ، وصفاتها النورانية وتجلياتها الروحانية ، وحب نبوى يتخذ موضوعه من الحقيقة المحمدية ، والصورة الانسانية لصاحب هذه الحقيقة العلوية ، وخصائصه الروحية والنفسية والخلقية ، هذان هما الحبان اللذان تحدثت اليك عنهما فى المقال السابق ، وأبنت لك عن مبلغ خطرهما فى الحياة الروحية لارباب الاذواق والمواجيد من الصوفية ، ومقدار أثرهما فيما أنتج القوم من ثمرات قلوبهم الزكية . وأحب أن أظهرك فى هذا المقال على صلة أحد هذين الحبين بالاخر ، ومنزلة أحدهما من الاخر ، وكيف يستوعب أحدهما الاخر بحيث يصبح الحب الالهى هو المسيطر على قلب المحب ، والمتمكن من سريرته ، والمشرق على بصيرته ، وبحيث يندرج الحب النبوى وينطوى فى هذا الحب الالهى ، فيصبح حديث المحب حديثا قوامه حب الذات الالهية والحقيقة العلية ، وأما حب الحقيقة المحمدية ، والحضرة النبوية ، فلا يكاد يبين من حديث المحب ، وهو ان بان فانما يبين بعد لأى ، و من خلال رموز واشارات ، وكنايات ومجازات واستعارات ، يختلط فيها الحبان ويتشابه منها على القارىء الامران فلا يدرى أهو مع محب يصدر فيما ينثر من عباراته أو ينظم من أبياته عن حب الهى ، ويتغنى جمال الذات العلية وكمالها وجلالها ، وغير هذا كله من صفاتها التى لا تتعين برسم أو حد ، ولا تتقيد بشرط أو قيد ، أم هو مع محب يصدر عن حب للحقيقة المحمدية وما لها من صفات الجمال والكمال والجلال ولكن مع التعين الاول الذى هو أول تعين فاض من الذات الالهية ومنه فاضت الكائنات الكونية ، أم هو مع محب يصدر عن حب لمحمد الرسول عليه الصلاة والسلام ، الذى بعثه الله برسالة قوامها الحب والاخاء والمساواة والسلام ، ويتغنى ما لهذا الرسول الكريم من خلق عظيم ، ويشدو بما خصه الله به من مناقب ومعجزات ، وما لنبوته من منزلة بين النبوات ، وما لرسالته من امتياز على سائر الرسالات .

ولكن يتبين لنا موقف الصوفية من الحب النبوى بالقياس الى موقفهم من

الحب الالهى ، ومكان الحب النبوى من الحب الالهى فيمـــا خلفوا من آثار منظومة ومنثورة ، يحسن أن نضرب ببعضهم الامثال ، ونعرض لبعض ما روى عنهم من أخبار وما نسب اليهم من أقوال . ويكفى فى هذا الصـدد أن نقف عند اثنين من أعظم أئمتهم خطرا وأبعدهم أثرا فى تاريخ الحيـاة الروحية الاسلامية بصـــفة عامة ، وفى تاريخ الحب الالهى وتطـــوره فى االتصوف الاسلامى بصفة خاصة ، وأحد هذين الامامين هى الزاهدة العابدة العاشقة رابعة العدوية . وثانيهما هو سلطان العاشـــقين وأمام المحبين عمر بن الفارض ، فعلى يد رابعة بذرت لاول مرة فى تاريخ الحياة الروحية الاسلامية بذور الحب فى بستان القلب ، وعلى يد ابن الفارض نمت هـذه البذور وزكت ، وأينعت وأزهرت ، فكان منها أشهى الثمـــار ، وأزهى الأزهار .

والمتأمل فى حياة رابعة الروحية ، وفيما قدمت بين يدى نجواها ، وفيما وجدت فيه سلواها ، وفيما كانت تتخذ منه مؤنسا لوحشـــتها ومفرجا لكربتها ، وموصلا الى قربتها ، يلاحظ أنها قد سلكت طريق الحب النبيل ، وانصرفت عن كل ما عداه من ألوان الحب ، وأقبلت بكل جوارحها وجوانحها على محبوب واحد ، قد وقفت قلبها عليه ، ونذرت كلها له ، بحيث لم تعد تستشعر حبا الا له ، ولا تتخذ أنيسا الا منه ، وهذا المحبوب الوحيـــد عندها هو الله الذى لم تكن تحبه خوفا من ناره ، ولا طمعا فى جنته ، بل شوقا اليه وابتغاء لوجهه وكشفا للحجب حتى تستمتع بمشاهدة جماله الازلى : فهى وقد فرغت لله ، وفرغت قلبها وحبها عن كل ما سوى الله قد قضت حياتها الروحية هاتفة بحبها ، مسبحة بجمال محبوبها ، طامحة الى الاتصال به ، طامعة فى القرب منه ، وهى بحكم هذا كله قد ملأ محبوبها كل قلبها ، وامتلأ قلبها بحبه ، وليس لمحبوب آخر نصيب من هذا الحب ولا موضع فى ذلك القلب . ومن هنا نستطيع أن نتبين مع رابعة لما لم يكن للحضرة النبوية أو الحقيقة المحمدية حظ فيما تغنت من حب ، وما خلفت من آثار .

وأما ابن الفارض ، فهو وان تشابه مع رابعة من وجه ، الا انه يختلف عنها من وجه آخر : فمثله كمثلها فى أنه كان يحب الله حبا ملك عليه حسه ونفسه وقلبه ، حتى انه كان يمسى ويصبح ، يروح ويغدو ، يرحل ويقيم ، وهو لا يستشعر حبا الا لله ، ولا يحس اقبالا الا على الله ، ولا يدرك بجوارحه وجوانحه جمالا الا جمـــال الله ، وليس له من أن تسمو نفســـه ويصفو قلبه ، ويطير طائر حبه الى وكر الازل حيث يتصل بالملأ الأعلى ويشـــهد محبوبه الاسمى ، عند المشهد الأسنى والمورد الأحلى .

وهكذا استوعب الحب الالهى حياة ابن الفارض الروحيـــة استيعابا يصوره ديوانه أصدق تصوير ، وتعبر عنه قصائده أرق وأدق تعبير . وان

الشاعر الصوفى ليبالغ فى وصف حبه الالهى ، وما لقيه فى سبيل هذا الحب من محن وخطوب ، وما احتمله من مشقات وأهوال ، كما يظهرنا على أن غايته من سلوك طريق الله ، وقطعه عقبات هذا الطريق ، لم تكن الجنة وما أعده الله فيها لعباده المقربين من نعيم مقيم ، وأن الدافع له الى قطع هذه العقبات وسلوك ذلك الطريق ، لم يكن خوفه من النار وما أعد فيها للكافرين من عذاب أليم ، بل أن غايته التى يطمح الى تحقيقها ، ويجد فى تحقيقها سعادته وبهجته وطمأنينته هى الظفر بلقاء رب الجنة ، والفوز بنظرة من وجهه الكريم . وابن الفارض هنا انما يذهب مذهب رابعة فى الحب الالهى ، الحب لوجه المحبوب الاسمى ومطالعة جماله الازلى فى كل معنى من المعانى ، وفى كل مجلى من المجالى . ومن هنا نجد ابن الفارض كما وجدنا رابعة من قبل قد استغرق فى حبه الالهى استغراقا يكاد أن يكون تاما والى هنا نتبين كيف انتهى ابن الفارض الى منزلته من هذا الحب الذى لم تشبه شائبة من هوى أو غرض ولم تفسده مفسدة من شهوة أو نزوة أو مرض ، كما نتبين مكانته بين العاشقين الذين يقول أنه نسخ بحبه آية عشقهم من قبله بحيث أصبح خليقا بأن يلقب من دونهم بسلطان العاشقين وأمام المحبين .

واذا كان ذلك كذلك ، فنحن نستطيع اذن أن نتبين فى يسر وجه الشبه بين ابن الفارض ورابعة وأن نتبين أيضا لم لا نجد لرابعة أقوالا أو أبياتا فى الحب النبوى ، ولا لابن الفارض الا أبياته التى يتحدث فيها عن الحقيقة المحمدية بلسان الجمع مع هذه الحقيقة، وأن نتبين بعد هذا كله لما لم يخص أحدهما أو كلاهما الرسول عليه الصلاة والسلام بطائفة من المدائح المنثورة أو المنظومة .

على أن ابن الفارض وان كان متفقا مع رابعة من هذا الوجه ، الا أنه مختلف عنها من وجه اخر : فهو كما أشرت آنفا قد تحدث فى تائيته الكبرى بلسان الجمع مع الحقيقة المحمدية فوصف ذات صاحبها عليه الصلاة والسلام ، وعدد صفاتها ، وبين رتبتها من الذات العلية والصفات الالهية ، وكشف عن صلتها ونسبتها من العوالم وما فيها من موجودات علوية وسفلية ، وهو فى غير التائية الكبرى من شعره قد تغنى بذكر كثير من الاماكن الحجازية المقدسة ، وردد فى كبير من قصائده ذكر حبيبه أو أحبته الذين سعد بقربهم فى تلك الاماكن عندما أقام معهم فيها ، وشقى بفراقهم

بعد ما رحل عنهم منها • وحديثه هاهنا عن حبه وقربه ووصله وسعادته ، وعن بعده ونزوحه وفراقه وشقاوته ، كل أولئك يمكن أن يفهم فى بعض المواطن على أنه حديث بلغة الحب الالهى من ناحية أو بلغة الحب النبوى من ناحية أخرى ، وعلى أن المحب هاهنا يصدر عن حب يتخذ موضوعه من الذات الالهية والحقيقة العلية ، أو من الذات المحمدية والحضرة النبوية • ومع هذا كله فنحن لا نكاد نجد لابن الفارض قصيدة أو طائفة من القصائد واضحة الدلالة على أن الحب الذى يرتل أنشودته انما هو حب نبوى ، وان المحبوب الذى يتغنى حبه ويصف جماله انما هو الرسول عليه الصلاة والسلام •

ومهما يكن من شىء ، فاننا قد نجد لسلطان العاشقين البيت أو البيتين فى مدح الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولعلنا واجدون أيضا العلة التى من أجلها لم يطلق الشاعر الصوفى نفسه على سجيتها فى الحب النبوى ومدح الرسول ، كما أطلقها فى الحب الالهى ووصف الحقيقة العلية :

فمن هذا القبيل قول ابن الفارض فى هذا البيت : -

وعلى تفنن واصفيه بحسنه يفنى الزمان وفيه ما لم يوصف

وهنا يروى عن الشاعر الصوفى انه لما نظم هذا البيت فرح وقال : «لم يمدح بمثله النبى صلى الله تعالى عليه وسلم» • وقد أكبر فريق من شراح ديوان ابن الفارض شأن هذا البيت اكبارا عظيما الى حد جعلهم يرون معه انه لو لم يكن لابن الفارض فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم سوى هذا البيت لكفى • وعلى حين يذهب حسن البورينى هذا المذهب فى فهم هذا البيت على أنه مدح للرسول محمد عليه الصلاة والسلام ، نرى عبد الغنى النابلسى يذهب مذهبا آخر فيشرح البيت على أنه قيل فى أول مخلوق وهو الحقيقة المحمدية والنور المحمدى الذى خلق الله تعالى منه كل شىء والذى جماله وحسنه هو كل الجمال وكل الحسن ، فاذا وصف الواصفون ما عسى أن يصفوا لا يبلغون ذلك • ولعل الذى حمل كلا من البورينى والنابلسى على أن يذهب مذهبه فى تأويل معنى هذا البيت على الوجه الذى يرى ، هو بعض القرائن والمناسبات التى ورد ذكرها فى القصيدة الفائية التى منها هذا البيت ، وهى القصيدة التى يخاطب ابن الفارض محبوبه فى مطلعها بقوله : -

قلبى يحدثنى بأنك متلفى روحى فداك عرفت أم لم تعرف
لم أقض حق هواك ان كنت الذى لم أقض فيه أسى ومثلى من يفى
مالى سوى روحى وباذل نفسه فى حب من يهواه ليس بمسرف

وليس من شك فى أن أظهر قرينة وأبرز مناسبة وردت فى هذه القصيدة ، وجعلت البورينى ينظر الى المحبوب الممدوح فى ذلك البيت على

انه الرسول عليه الصلاة والسلام ، وحملت النابلسى على أن يرى انه الحقيقة المحمدية أو النور المحمدى ، هى ما ضمنه ابن الفارض بنفسه من ذكر بنى سعد وهى قبيلة حليمة السعدية مرضعة النبى صلى الله عليه وسلم من ناحية ، كما أنها القبيلة التى يرد اليها نسب ابن الفارض نفسه من ناحية أخرى ،، وذلك اذ يقول : -

يا أخت سعد من حبيبى جئتنى ... برسالة أديتها بتلطف
فسمعت ما لم تسمعى ونظرت ما ... لم تنظرى وعرفت مالم تعرفى

واذا كان ذلك كذلك ، وكان المحبوب الذى يقول عنه ابن الفارض ان الواصفين له بالحسن مهما تفننوا فى وصفه فلن يبلغوا ما يريدون ، هو الرسول عليه الصلاة والسلام، فماذا عسى أن يكون معنى البيت الذى يذكر فيه ابن الفارض ذلك المحبوب الممدوح ؟

يقول البوريني فى شرحه لديوان شاعرنا : « ان معناه أن الواصفين الذين تفننوا فى وصفه بالحسن لا يستطيعون أن يبلغوا غاية وصفه ، ولا أن يستغرقوا ما فيه من وافر الجمال ، ولو استمروا على ذلك الى انقضاء الزمان ، وتمام الدوران ، حتى أن الزمان يفنى فى وصفه وقد بقيت فيه أو صاف لم يدركوها ولم يفقهوها، فعلم أن أوصاف جماله أكثر من أوصاف الزمان » . وهذا يعنى بعبارة أخرى من عبارات البوريني أيضا : « أن الزمان ، وتمام الدوران ، حتى أن الزمان يفنى فى وصفه وقد بقيت فيه الحاسب ، ولا يحصيها الكاتب فهى أوسع من الزمان ، وأوفر من حوادث الحدثان . » . فاذا أضفنا الى هذه المعانى ما ذكره الشارح بعد من أنه بلغه ممن يثق به أن الشيخ رضى الله عنه قال : « لو لم يكن لى فى مدح الرسول سوى هذا البيت لكفى » ، دل ذلك على أنه قصد به مدحه صلى الله عليه وسلم .

واذا كان المحبوب الممدوح فى بيت ابن الفارض هو الحقيقة المحمدية أو النور المحمدى ، فماذا عسى أن يكون معنى البيت اذن ؟ يقول النابلسى فى (كشف السر الغامض من شرح ديوان ابن الفارض) : «ان هذا المحبوب الحقيقى لو أتى الواصفون له بأنواع الفنون فى وصف حسنه وجماله ، تذهب الدنيا وتنقضى وقد بقى من ذلك الحسن والجمال أمور لم توصف ولم تذكر . ولا شك فى ذلك ، فان أول مخلوق قبل كل شىء هو الحقيقة المحمدية ، وهو النور المادى الذى خلق الله تعالى منه كل شىء ، وجماله وحسنه هو كل الجمال وكل الحسن ، فاذا وصف الواصفون ما عسى أن يصفوا لا يبلغون ذلك » .

هذا فيما يتعلق بالحبيب الممدوح فى ذاته ، أما فيما يتعلق بالقرينة أو المناسبة التى تضمنها البيتان الاخيران ، وهى الخطاب الذى يوجهه الشاعر

الى أخت سعد ، فان ذلك يعنى عند البوريني : « أن الشيخ الاستاذ صاحب هذا الشعر سعدى ، وكذا حضرة الرسول صلى الله عليه وسلم، فان حليمة التى أرضعته من بنى سعد ، كما قال : « أنا أفصح من نطق بالضاد ، بيد انى من قريش ، واسترضعت فى بنى سعد ، فلك أن تقول : مراد الشيخ رضى الله عنه أن يخاطب روحه الشريفة يعنى : ياروحى التى هى من بنى سعد ، قد جئت الى برسالة من حبيبى الذى أحبنى فتعرف الى لأعرفه .. ويحتمل أن يكون المراد نداء حبيبه من بنى سعد كما هو عادة العرب ..»

وهو يعنى عند النابلسى : « أنأخت سعد كناية عن روحه المنفوخة فيه من روح الله عن أمر الله ، فكان روح الله الذى هو أول مخلوق ، هو السعد المحض الذى لا شقاء معه وهو روح أرباب العصمة من الانبياءعليهم السلام .... ويريد بالرسالة هذه العلوم الالهية ، والمعارف الربانية والحقائق الرحمانية .... وهذه رموز الهية ، فى قوالب . كلمات معنوية ، لايعرفها الا صاحب البيت ، الذى وضع الله فى سراج بصيرته من الهداية زيت » .

ولابن الفارض قصيدة أخرى تغنى فيها للحب ، وذكر فيها المحبوب ، واختلف الشراح حول المراد بهذا المحبوب أهو الذات الالهية ، أم هوالحقيقة المحمدية أو الرسول عليه الصلاة والسلام ، وهذه القصيدة هى الميمية التى تعرف بالخمرية ، والتى يقول الشاعر الصوفى فى مطلعها : -

شربنا على ذكر الحبيب مدامة سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم
لها البدر كأس وهى شمس يديرها هلال وكم يبدو اذا مزجت نجم

وقد قدم البوريني بين يدى شرحه لهذه القصيدة بمقدمة ذكر فيها : « ان هذه القصيدة مبنية على اصطلاح الصوفية . فانهم يذكرون فى عباراتهم الخمرة بأسمائها وأوصافها ، ويريدون بها ما أراد الله تعالى على ألبابهم من المعرفة ، أو من الشوق والمحبة ، وان الحبيب فى البيت الاول عبارة عن حضرة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وقد يريدون به ذات الخالق القديم جل وعلا ، لانه تعالى أحب أن يعرف فخلق ، فالخلق منه ناشىء عن المحبة ، وحيث أحب فخلق فهو الحبيب والمحبوب ، والطالب والمطلوب » .

واذا كان البوريني يتردد بين أن يكون الحبيب هنا هو حضرة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وبين أنه ذات الحق القديم عز وجل ، فان النابلسى يذهب الى أن الحبيب انما هو الحق تعالى .

ومهما يكن من أمر المذاهب المختلفة التى ذهب اليها شراح ديوان ابن الفارض من أن الحبيب أو المحبوب الذى يرتل الشاعر الصوفى أنشودة حبه ، قد يكون فى أكثر شعره عبارة عن الذات الالهية والحقيقة العلية وقد يكون فى بعض أبيات قليلة عبارة عن الذات المحمدية والحضرة النبوية ، فان

الشيء الذى لا شك فيه هو أننا لا نكاد نعثر لابن الفارض على قصيدة بأكملها قصد فيها من أولها الى آخرها ، الى وصف حبه النبوى ، وذكر حبيبه المحمدى وانما هو قد احتفل بحبه الالهى ، وبمحبوبه الحقيقى ، احتفالا لم يسبقه اليه أحد من المتقدمين ، ولم يشاركه فيه أحد من المعاصرين ، ولم يلحق به فيه أحد من المتأخرين فهو من هذه الناحية امام المحبين ، وسلطان العاشقين .

فاذا أردنا بعد هذا كله أن نعلل موقف ابن الفارض من الحب النبوى ، ولما لم يخصص بعض قصائده الطوال أو القصار لمدح الرسول عليه الصلاة والسلام ، قلنا لعله قد شغله حبه الالهى عن حبه النبوى ، وملك عليه قلبه ذكر محبوبه الحقيقى وهو الله عز وجل ، أكثر مما ملك عليه هذا القلب ذكر حبيب ذلك المحبوب الحقيقى وهو محمد صلى الله عليه وسلم ، لان محمدا قد اختص من دون الانبياء عليهم السلام بمقام المحبة ، فالله قد اتخذ من محمد حبيبا ، على حين اتخذ من غيره من الانبياء صفيا ونجيا وخليلا ، ومن يدرى فلعل ابن الفارض قد نظر من هذه الناحيـــة فرأى أن حب الحبيب النبوى منطو أو مندرج فى حب الحبيب الالهى ، اذ حبيب المحبوب الحقيقى محبوب . ومن يدرى أيضا فلعل ابن الفارض قد تأثر بمذهب رابعة على الوجه الذى تبيناه آنفا ، أو اقتدى بأبى سعيد الخراز فيما يروى عن هذا الاخير من أنه رأى النبى عليه الصلاة والسلام فى المنام ، فقال له : «يارسول الله اعذرنى ، فان محبة الله تعالى شغلتنى عن محبتك ، فقال له النبى : يامبارك ، من أحب الله فقد أحبنى » . ومن هذا القبيل ما يروى عن ابن الفارض نفسه من أنه رؤى فى المنام ، فقيل له : لم لامدحت المصطفى صـــلى الله عليه وسلم فى ديوانك ، فقال : ـ

أرى كل مـدح فى النبى مقصرا ... وان بالغ المثنى عليـه وأكثرا
اذ الله أثنى بالذى هو أهـــله ... عليه فما مقدار ما يمدح الورى

محمد مصطفى حلمى
أستاذ الفلسفة والتصوف بآداب القاهرة

* * *